الاستعارة التبعية

الاستعارة التبعية هى الشطر الثانى للاستعارة التصريحية، وظاهر من اسمها أنها تابعة فى الإجراء للأصلية، فالتشبيه فيها ثانوى، تابع للتشبيه فى الأستعارة الأصلية، وقد قرر الشيخ عبد القاهر الجرجانى - رحمه الله - هذه الحقيقة بعد أن بين كنه كل من الاستعارة المكنية، والأصلية فقال: « ... وإذ قد تقرر أمر الاسم فى كون استعارته على هذين القسمين، فمن حقنا أن ننظر فى الفعل هل يحتمل هذا الانقسام والذى يجب العمل عليه أن الفعل لا يتصور فيه أن يتناول ذات شيء كما يتصور فى الاسم، ولكن شأن الفعل أن يثبت المعنى الذى اشتق منه للشيء فى الزمان الذى تدل صيغته عليه فإذا قلت ضرب زيد أثبت الضرب لزيد فى زمان ماض »(١).

وغير خاف أن الفعل فى (ضرب زيد) ليس استعارة، ولكنه ذكر ذلك توطئة وتمهيدا لقوله بعد ذلك « ... وإذا كان كذلك فإذا استعير الفعل لما ليس له فى الأصل، فإنه يثبت باستعارته له وصفا هو شبيه بالمعنى الذى ذلك الفعل مشتق منه بيان ذلك أن تقول نطقت الحال بكذا، وأخبرتنا أسارير وجهه بما فى ضميره، وكلمتنى عيناه بما يحوى قلبه، فتجد فى الحال وصفا هو شبيه بالنطق من الإنسان، وذلك أن الحال تدل على الأمر، ويكون فيها أمارات يعرف بها الشيء، كما أن النطق كذلك، وكذلك العين فيها وصف شبيه بالكلام، وهو دلالتها بالعلامات التى تظهر فيها، وفى نظرها، وخواص أوصاف يحدس بها على ما فى القلوب من الإنكار والقبول »(٢).

فحاصل ما قاله الشيخ أن الاستعارة فى الأفعال إنما هى للمعنى الذى تتضمنه، والحدث الذى تشتمل عليه، وتلك هى الحقيقة التى أراد الشيخ أن يصل إليها، ويقررها فى الأذهان، والعقول عندما قال بعد ذلك: « .. وإذا كان أمر الفعل فى الاستعارة على هذه الجملة، رجع بنا التحقيق إلى أن وصف الفعل بأنه مستعار حكم يرجع إلى مصدره الذى اشتق منه، فإذا قلنا فى قولهم نطقت الحال أن نطق مستعار فالحكم بمعنى أن النطق مستعار، وإذا كانت الاستعارة تنصرف إلى المصدر، كان الكلام فيه على ما مضى »(٣).

---

(١) أسرار البلاغة: ٥١.
(٢) المرجع نفسه والموضع.
(٣) المرجع نفسه: ٥٢، ٥٣.

فالاستعارة التبعية كما قرر الشيخ عبد القاهر فى الفعل وغيره تجرى أولا فى مصادر هذه الأفعال، ثم تجرى بعد ذلك فى الأفعال وغيرها؛ ولذلك قال الحموى: «والتبعية ما كان التشبيه داخلا فى المستعار دخولا ثانويا، ولم يكن المستعار اسم جنس، وتقع فى الأفعال والصفات العاملة والحروف... مثال الأولين الحال نطقت بكذا، أو ناطقة بكذا. استعير النطق فيهما للدلالة، فجرت الاستعارة أولا فى المصدر المذكور وتبعته فى الفعل والوصف، فلهذا سمِيت تبعية»(١).

وقد تطرق صاحب لسان العرب إلى كثير من الاستعارات التبعية فى الأفعال وغيرها، وقد تمثل تناوله لها فى صور متنوعة:

إحداها: أن يصرح بلفظ الاستعارة، أو ما اشتق منه، ومن ذلك ما ذكره من استعارة الإفاضة للاندفاع فى السير فقد قال: «... وفى حديث الحج فأفاض من عرفة(٢)... الإفاضة الزحف، والدفع فى السير بكثرة، ولا يكون إلا عن تفرق، وجمع، وأصل الإفاضة الصب، فاستعيرت للدفع فى السير... ومنه طواف الإفاضة يوم النحر يفيض من منى إلى مكة فيطوف ثم يرجع»(٣).

ففى قول الرسول ﷺ (فأفاض من عرفة) استعارة تبعية فى الفعل الماضى (أفاض) عبر عنها صاحب اللسان بالفعل (استعير) وحقيقة الإفاضة صب الماء.

وهذه استعارة قرآنية جاءت فى مثل قوله تعالى: ﴿ **فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ** ﴾ [البقرة: ١٩٨].

وقد بينها صاحب الكشاف بقوله: «أى اندفعتم بكثرة، وهو من إفاضة الماء وهو صبه بكثرة»(٤).

وهى استعارة محسوس لمحسوس - كما هو ظاهر.

وقد أشار الزمخشرى إلى أن الإفاضة تستعار أيضًا للاندفاع فى الحديث فقد قال: «ومن المجاز وأفاضوا من عرفات، وأفاضوا فى الحديث اندفعوا»(٥).

---

(١) درر العبارات وغرر الإشارات فى تحقيق معانى الاستعارات للحموى: ١١.
(٢) ينظر النهاية فى غريب الحديث والأثر: ٣/٤٨٥.
(٣) لسان العرب: ٥/٣٥٠١ (فيض).
(٤) الكشاف: ١/١٢٣. (٥) أساس البلاغة (فيض).

وأفاض القوم فى الحديث انتشروا، وقال اللحيانى هو إذا اندفعوا وخاضوا وأكثروا... وفاض الحديث والخبر واستفاض ذاع وانتشر، وحديث مستفيض ذائع»[١].

ومن ذلك النوع ما ذكره من استعارة إزلال الأجسام، وهو انتقالها من مكان إلى آخر، لانتقال النعمة من المنعم إلى المنعم عليه، فقد قال: «زل السهم عن الدرع والإنسان عن الصخرة يزل... زلا، وزليلا، ومزلة زلق»[٢].

وهذا الاستعمال الذى ذكره حقيقة لغوية، ولكنه أضاف قائلا: «وأزل إليه نعمة أسداها، وفى الحديث من أزلت إليه نعمة فليشكرها[٣]، واتخذ عنده زلة أى صنيعة، وأزللت إليه نعمة أى أسديتها، قال أبو عبيد قوله فى الحديث من أزلت إليه نعمة معناه من أسديت إليه، وأعطيها واصطنعت عنده قال ابن الأثير وأصله من الزليل وهو انتقال الجسم من مكان إلى مكان فاستعير لانتقال النعمة من المنعم إلى المنعم عليه قال كثير يذكر امرأة:

وإنى وإن صدّت لمثن وصادق　　عليها بما كانت إلينا أزلت

والمزلل الكثير الهدايا والمعروف»[٤].

فقوله وهو يوضح معنى (أزلت) فى الحديث (فاستعير – أى الإزلال – لانتقال النعمة إلخ) ظاهر فى أنه يقصد الاستعارة فى (أزلت) وهى تبعية، وقد عبر عنها بالفعل (استعير).

ومن هذا النوع ما ذكره من استعارة إشادة البنيان ورفعته، للإشادة بذكر الناس فى الخير والشر فقد قال: «أشاد بالضالة عرف... ويقال أشاد فلان بذكر فلان فى الخير والشر، والمدح، والذم إذا شهره ورفعه، وفى الحديث من أشاد على مسلم عورة يشينه بها بغير حق شانه الله يوم القيامة ويقال أشاده وأشاد به، إذا أشاعه ورفع ذكره من أشدت البنيان فهو مشاد، وشيدته إذا طولته فاستعير لرفع صوتك بما يكرهه صاحبك»[٥].

---

(١) ينظر لسان العرب : ٥ / ٣٥٠١ (فيض).

(٢) لسان العرب : ٣ / ١٨٥٥ (زلل).

(٣) ينظر النهاية فى غريب الحديث والأثر: ٢ / ٣١٠.

(٤) لسان العرب : ٣ / ١٨٥٦ (زلل).

(٥) لسان العرب : ٤ / ٢٣٥٦ (شود). والنهاية فى غريب الحديث والأثر: ٢ / ٥١٧.

فالمعني الحقيقي للإشادة هي رفعة البناء، وشموخه، ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ [النساء: ٧٨] فالبروج هي الحصون، والمشيدة أي المرفعة من شاد القصر إذا رفعه[١] فالاستعارة في الفعل (أشاد...) في كلامه الآنف الذكر، وقد عبر عن هذه الاستعارة بقوله (فاستعير لرفع صوتك إلخ).

استعيرت رفعة البناء لرفع الصوت بالمدح، أو القدح، ويدل ما ذكره صاحب اللسان على أن ما تعارف عليه الناس من قصرهم الإشادة على الخير وحده مناف لكلام العرب، ولغتهم. قال الزمخشري: «ومن المجاز أشاد بذكره رفعه بالثناء عليه، وأشاد عليه قبيحا أو بقبيح»[٢].

وظاهر من كلامهما معا أنه يقال أشاد فلان بذكر فلان في الخير والشر، ولا يقال أشاد عليه قبيحا إلا في الشر، فالإشادة في الشر تتعدى بالباء، وعلى؛ ولذلك قال ابن حجر العسقلاني – رحمة الله – أشاد بذكره رفعه بالثناء عليه، وأشاد عليه أفشى عليه مكروها، ويقال أشاد عليه قبيحا فقبح[٣].

ومن هذا اللون ما ذكره من استعارة دخول الضب في جحره لدخول الشيطان في الإنسان فقد قال: «.. والقصعة والقصعاء والقاصعاء جحر يحفره اليربوع... وقصع الضب سد باب حجره... وقصع الضب أيضًا دخل في قاصعائه، واستعاره بعضهم للشيطان فقال:

إذا الشيطان قصع في قفاها تنفقناه بالحبل التؤام

قوله تنفقناه أي استخرجناه كاستخراج الضب من نافقائه»[٤].

الاستعارة التبعية في الفعل (قصّع) من قوله (قصع في قفاها) وقد كرر ذلك البيت في موضع آخر عندما قال: «والنافقاء جحر الضب واليربوع... وتنفقه الحارس وانتفقه استخرجه من نافقائه واستعاره بعضهم للشيطان فقال:

إذا الشيطان قصع في قفاها تنفقناه بالحبل التؤام

---

(١) الكشاف: ١/٢٨٣.
(٢) أساس البلاغة (شيد).
(٣) غراس الأساس (شيد).
(٤) لسان العرب: ٥/٣٦٥٤ (قصع).

أى استخرجناه استخراج الضب من نافقائه»[١].

فقوله فى صدر كلامه المتقدم وقصع الضب دخل فى قاصعائه حقيقة لغوية، وقد استعير هذا التقصيع لدخول الشيطان فى قفا هذه المرأة التى ذكر الشاعر اسمها فى بيت يسبق هذا البيت وهو قوله:

وما أم الردين وإن أدلت   بعالمة بأخلاق الكرام[٢]

وقد عبر صاحب اللسان عن هذه الاستعارة بالفعل الماضى (استعار) فى قوله (واستعاره بعضهم للشيطان).

ومعنى قصع الشيطان فى قفا الإنسان أى أنه قد ساء خلقه وغضب[٣] وهذه الاستعارة مرشحة لأنه ذكر معها ما يتلاءم مع المستعار منه وهو قول الشاعر فى الشطر الثاني (تنفقناه بالحبل التؤام) فالاستخراج بالحبل إنما يلائم الضب الذى دخل فى جحره، وفى هذا ما فيه من زيادة تناسى الاستعارة.

ومن هذا القبيل ما صرح به من استعارة صعد المكان، لارتفاع الهوى فى قلب المحب فقد قال: «صَعِدَ المكان وفيه صعودا، وأصعد، وصَعّد ارتقى مشرفا»[٤].

وهذا صعود حقيقى كما لا يخفى، وقد أتبع صاحب اللسان ذلك بالصعود المجازى فقال: «واستعاره بعض الشعراء للعرض الذى هو الهوى فقال:

فأصبحن لا يسألنه عن بمابه   أصعد فى علو الهوى أم تصوبا[٥]

وأراد أصعد أم صوب فلما لم يمكنه ذلك وضع تصوب موضع صوب»[٦].

ومعنى تصوب تسفل[٧] واضح أن الاستعارة التى أرادها هنا هى فى (أصعد) وإن كان فى (تصوبا) أيضًا استعارة.

فالصعود، والتصعد الحقيقى الارتفاع المحسوس فى الأمكنة ونحوها والتصوب التسفل المحسوس كذلك، وقد جاء الفعلان على سبيل الحقيقة فى الشاهد البلاغى المشهور:

---

(١) المصدر نفسه: ٦/٤٥٠٨ (نفق).   (٢) ينظر الكشاف: ١/٣٧.

(٣) أساس البلاغة (قصع). وغراس الأساس (قصع).

(٤) لسان العرب: ٤/٣٤٤٤ (صعد).

(٥) أراد عما به فزاد الباء وفصل بها بين عن وما جرته. المصدر نفسه: ٤/٢٤٤٥.

(٦) المصدر نفسه والموضع.   (٧) أساس البلاغة (صوب).

وكأن محمـــر الشقيـ   ق إذا تصوب أو تصعـد
أعلام ياقوت نشـــــر   ن على رماح من زبرجد

وقد عبر صاحب اللسان عن هذه الاستعارة التبعية فى (أصعد) بقوله (واستعاره بعض الشعراء للعرض إلخ).

وهى استعارة محسوس لمعقول، وقد جرت عادته أن يعبر عن المعقول (بالعرض) ويعبر عن المحسوس (بالجوهر) أحيانا.

وقد ظفرت باستعارة اسم الفاعل من (أصعد) للارتقاء فى قمم المجد، ومدارجه فى قول الخنساء تمدح أخاها صخرا:

إذا القوم مدوا بأيديهم   إلـــى المجـد مـد إليه يـدا
فنال الذى فوق أيديهم   من المجد ثم مضى مصعدا(١)

أى أنه فاق القوم، وبذهم فى المجد والشرف، وارتقى نحو قمة المجد. وذروته، فاستعارت (مصعدا).

للارتفاع فى السؤدد، والمجد، وعلى ذلك قول الزمخشرى «ومن المجاز له شرف صاعد... ورتبة بعيدة المصعد والمصاعد»(٢).

ومن هذا النمط ما ذكره من استعارة غصب الشىء وهو أخذه ظلما، لمواقعة المرأة رغما عنها فقد قال: «الغصب أخذ الشىء ظلما غصب الشىء يغصبه غصبا، واغتصبه فهو غاصب... والاغتصاب مثله.. وفى الحديث أنه غصبها نفسها أراد أنه واقعها كرها فاستعاره للجماع»(٣).

فالمستعار منه الغصب المعبر عنه بالفعل (غصبها) فى الحديث، والمستعار له الجماع كرها، ويلاحظ أن صاحب اللسان سوى بين الفعلين غصب، واغتصب فى إفادة هذا المعنى، وإن كان الموجود فى الحديث المذكور (غصب).

وقد عبّر الزمخشرى عن هذه الاستعاره بالفعل (اغتصب) حين قال: «واغتصبت فلانة نفسها جومعت مقهورة»(٤).

---

(١) البيتان فى أسرار البلاغة: ٣٦٢.   (٢) أساس البلاغة (صعد).
(٣) لسان العرب: ٥ / ٣٢٦٢ (غصب). والنهاية فى غريب الحديث والأثر: ٤ / ٣٧٠.
(٤) أساس البلاغة (غصب).

ونلحظ أن الفعل (اغتصب) هو المتداول على ألسنة الناس فى هذه الأيام حينما يعبرون عن هذه الفعلة الشنعاء، وخاصة فى وسائل الإعلام المختلفة. ولعل ذلك لما فيه من زيادة المبنى التى تدل على زيادة المعنى – كما يقولون –.

ومن ذلك ما ذكره من استعارة ضيف، وأضاف من إكرام الضيف، لمسالمة الذئب وتأمينه فقد قال: « وأضفته، وضيفته أنزلته عليك ضيفاً، وأملته إليك، وقربته، ولذلك قيل هو مضاف إلى كذا أى ممال إليه، ويقال أضاف فلان فلانا فهو يضيفه إضافة إذا ألجأه إلى ذلك، وفى التنزيل العزيز ﴿ فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا ﴾ [الكهف: ٧٧] وأنشد ثعلب لأسماء بن خارجة الفزارى يصف الذئب:

ورأيت حقا أن أضيفه إذا رام سلمى واتقى حربى

استعار له التضييف، وإنما يريد أنه أمنه وسالمه »(١).

فالاستعارة التبعية فى الفعل (أضيفه) وقد عبر عنها بالفعل (استعار . .) .

فالمستعار منه إكرام الضيف، وتقريبه، وإمالته، والمستعار له تأمين الذئب، ومسالمته، وعدم إيذائه.

ويلاحظ أن فى قوله (استعار له التضييف) تعبير عن الاستعارة التبعية فى قول الشاعر (أضيفه) بالمصدر (تضييف) وربما كان يومىء بذلك إلى أن التبعية تجرى أولا فى المصدر، ثم تجرى بعد ذلك فى الفعل – كما سبق بيانه –.

ومن ذلك الضرب ما ذكره من استعارة الفعل (هَبِل) من فقد الولد، لفقد العقل والتمييز، فقد قال: « والهبل الثكل، هبلته أمه ثكلته، وفى حديث الشعبى فقيل لأمك الهبل، وفى حديث حارثة بن سراقة ويحك أو هبلت هو بفتح الهاء وكسر الباء، وقد استعاره هنا لفقد الميز والعقل مما أصابها من الثكل بولدها كأنه قال أفقدت عقلك بفقد ابنك »(٢).

فالاستعارة التبعية فى الفعل الماضى من قوله (أو هبلت) وقد استعير (الهبل) وهو مصدر هذا الفعل من فقد الابن لفقد العقل والتمييز، فيقال لأمه الهبل، وهبلته أمه، وأمه هابل(٣).

---

(١) لسان العرب: ٤ / ٢٦٢٥ (ضيف).
(٢) لسان العرب: ٦ / ٤٦٠٧ (هبل). والنهاية فى غريب الحديث والأثر: ٥ / ٢٤٠.
(٣) ينظر أساس البلاغة (هبل).

وقد وجدت في شواهد الكشاف قول الشاعر:

والناس من يلق خيرا قائلون له ما يشتهي ولأم المخطيء الهبل

أي يقول الناس لمن يلقى خيرا ما يريده من الدعاء بالخير، والمدح والثناء، ويقال لأم المخطيء الهبل أي الثكل يدعون عليها بموت ولدها، فكأنهم يدعون على المخطيء بالموت[1].

وقد تردد صاحب شواهد الكشاف في قائل هذا البيت:

أهو للقطامي أو للأعشى»[2]

وقد عثرت بهذا البيت مع بيتين آخرين وهي للقطامي من قصيدة يقول فيها:

والعيش لا عيش إلا ما تقربه عَيْنٌ ولا حال إلا سوف ينتقل
والناس من يلق خيرا قائلون له ما يشتهي ولأم المخطيء الهبل
قد يدرك المتأني بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل[3]

ومما يجدر ذكره أن كلمة (الهبل) يستعملها الناس في معنى فقدان العقل، وهذا - كما رأينا - استعمال فصيح، وهي استعارة اشتهرت حتى صارت كأنها حقيقة.

ومن هذا النسق ما ذكره من استعارة إسناف الخيط، وهو إحكام فتله، لإحكام الأمر فقد قال: «السناف خيط يشد به من حقب البعير إلى تصديره، ثم يشد في عنقه إذا ضمر... والجمع سنف... وأسنفه شده بالسناف، وأسنفت البعير جعلت له سنافا، وإنما يفعل ذلك إذا خمص بطنه، واضطرب تصديره وهو الحزام... وربما قالوا أسنفوا أمرهم أي أحكموه، وهو استعارة من هذا»[4].

المستعار منه في هذه الاستعارة إسناف الحبل ونحوه من الأشياء المحسوسة، والمستعار له إحكام الأمر وذلك شيء معقول ولا يخفى أن الاستعارة في (أسنفوا أمرهم) وقد عبر عنها صاحب اللسان بلفظ (استعارة) في قوله (وهو استعارة من هذا).

---

(١) ينظر مشاهد الإنصاف على شواهد الكشاف: ٩١ في نهاية الجزء الرابع للكشاف.
(٢) ينظر المرجع نفسه والموضع. (٣) زهر الآداب ٣/٦٤٦.
(٤) لسان العرب: ٣/٢١١٨ (سنف).

ومن هذا اللون ما ذكره من استعارة اللمس، وهو الجس باليد، للطلب فقد قال: «اللمس الجس، وقيل اللمس المس باليد... وفى الحديث من سلك طريقا يلتمس فيه علما أى يطلبه فاستعار له اللمس، وفى حديث عائشة فالتمست عقدى والتمس الشيء وتلمسه طلبه»(١).

فالمستعار منه اللمس باليد، والمستعار له طلب الشيء والبحث عنه، والاهتمام بأمره، وقد عبر عن هذه الاستعارة بالفعل (استعار..).

ومن ذلك النوع ما ذكره من استعارة الطيران، للجرى فقد قال: «الطيران حركة ذى الجناح فى الهواء بجناحه طار الطائر يطير طيرا وطيرانا... وقال العنبرى:

طاروا إليه زرافات ووحدانا(٢)

ومن أبيات الكتاب - يقصد كتاب سيبويه - وطرت بمنصلى فى يعملات(٣) فاستعملوا الطيران فى غير ذى الجناح... وقوله فى الحديث رجل ممسك بعنان فرسه فى سبيل الله يطير على متنه أى يجريه فى الجهاد، فاستعار له الطيران»(٤).

المستعار منه هو الطيران - كما قال - وهو مصدر الفعلين فى (طاروا) و(طرت) فى الشطرين السابقين، وقد أشار إلى الاستعارة فى الشطرين بقوله (فاستعملوا الطيران فى غير ذى الجناح) وعبر عنها فى الحديث بقوله (فاستعار له الطيران) أى استعار الطيران للجرى.

ويلاحظ أنه ذكر أن المستعار منه (الطيران) وهو مصدر الفعل (يطير) المذكور فى الحديث، ولعله يلوح بذلك إلى أن الاستعارة التبعية تجرى فى المصدر أولا ثم تجرى بعد ذلك فى الفعل.

---

(١) لسان العرب: ٥/٤٠٧٢ - ٤٠٧٣ (لمس). والنهاية فى غريب الحديث والأثر ٤/٢٧٠، ٢٧١.

(٢) البيت بتمامه:

قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم   طاروا إليه زرافات ووحدانا

ينظر مشاهد الإنصاف على شواهد الكشاف: ٤/١٣٢.

(٣) البيت فى الإيضاح وهو بتمامه:

فطرت بمنصلي فى يعملات   دوامى الأيد يخبطن السريحا

ص ١٢٤ (البغية).

(٤) لسان العرب: ٤/٢٧٣٥ - ٢٧٣٨ (طير).

ومن هذا القبيل ما ذكره من استعارة الصوغ، وهو سبك الفضة، والذهب ونحوهما، للكذب والزور، واختلاف الكلام، ويستعار كذلك لتأليف الكلام، وترتيبه فقد قال: «الصوغ مصدر صاغ الشيء يصوغه صوغا وصياغة... سبكه ورجل صواغ يصوغ الكلام ويزوره، وربما قالوا فلان يصوغ الكذب وهو استعارة، وصاغ فلان زورا وكذبا إذا اختلقه يقال صاغ شعرا وكلاما أي وضعه ورتبه»(١).

فالصياغة أو الصوغ في الأصل هي السبك، وهو كما جاء في لسان العرب «سبك الذهب والفضة ونحوه من الذائب... وسبكه ذوبه وأفرغه في قالب والسبيكة القطعة المذوبة منه»(٢).

والصوغ، أو الصياغة، أو السبك، في الذهب، والفضة، وما أشبههما – كما أبانه – معنى حقيقي – أو استعمال حقيقي، ويستعار للكذب والزور فيقال صاغ فلان زورا وكذبا فالفعل (صاغ) استعارة تبعية.

وكذلك يقال على سبيل الاستعارة فلان يصوغ الكذب، ففي الفعل (يصوغ) استعارة تبعية، وفي هذا إيماء إلى أن الكذاب يحتاج إلى تعمل وتمحل وبذل للجهد والطاقة في اختلاق الكذب، وتزويقه، وإحكام نسجه، وتستعار الصياغة والصوغ كما قال صاحب اللسان في كلامه الآنف الذكر أيضًا لوضع الشعر، وتأليفه، وترتيبه، وكذلك تأليف النثر، أو على حد تعبيره (صاغ شعرا وكلاما أى وضعه ورتبه) وقد صرح بأن هذا الاستعمال من قبيل الاستعارة.

ومما يلاحظ في هذا الصدد أن كلمة الصياغة، وهي كثيرة التناول والاستعمال تأتي عند البلاغيين – كما أوضح صاحب اللسان – مستعارة لتأليف الكلام شعره، ونثره، وإحكامه، وإتقان نسجه، وقد تكررت هذه الكلمة مع أخوات لها في كلام الشيخ عبد القاهر الجرجاني، وهو يشير إلى نظم الكلام وتأليفه، فمن ذلك ما ذكره في بعض المواضع من أن النظم «كان عندهم نظير للنسيج والتأليف والصياغة والبناء والوشي والتحبير، وما أشبه ذلك مما يوجب اعتبار الأجزاء بعضها مع بعض»(٣).

ومن هذا الضرب ما ذكره من استعارة زراعة الحب، وبذرِه في الأرض، لتثبيت

(١) لسان العرب ٤/ ٢٥٢٧ (صوغ). (٢) المصدر نفسه: ٣/ ١٩٢٩ (سبك).
(٣) دلائل الإعجاز: ٤٩

الحكمة، أو الحجة في قلوب الناس فقد قال: «زرع الحب يزرعه زرعا وزراعة بذره والاسم الزرع... واستعار عليٌّ رضوان الله عليه ذلك للحكمة أو للحجة، وذكر العلماء الأتقياء بهم يحفظ الله حججه حتى يودعوها نظراءهم ويزرعوها في قلوب أشباههم»[1].

ففي قوله (يزرعوها) استعارة تبعية، استعيرت زراعة الحب في الأرض لإقرار الحكمة، أو الحجة في قلوب العلماء الأتقياء، وترسيخها في نفوسهم، وهي استعارة محسوس لمعقول كما هو ظاهر، وقد عبر عنها بالفعل الماضي (استعار).

ويبدو أن استعارة الزراعة في الأرض للأمور المعنوية ليست قاصرة على الحكمة، أو الحجة، فقد ظفرت ببعض أمثلة استعيرت فيها الزراعة للمحبة، وتمكينها في القلوب، قال الزمخشري: ومن المجاز وزرع الحبَّ لك في القلوب كرمك، وحسن خلقك[2] وتستعار أيضًا للإحسان: قال الشاعر:

عمر الفتى ذكره لا طول مدته ... وموته خزيه لا يومه الداني
فأحي ذكرك بالإحسان تزرعه ... تجمع لك في الدنيا حياتان[3]

وتستعار الزراعة على ألسنة الناس في هذه الأيام لتمكين الإنسان من وظيفة، أو عمل، أو موقع من المواقع، فيقولون - مثلا - زرع العميد ابنه في كليته، أو ما شاكل ذلك إشارة إلى تمكينه من عمل فيها، أو وظيفة يؤثره بها، دون غيره من نظرائه.

وقد اقتصر صاحب لسان العرب هنا في مادة (زرع) على الاستعارة في قوله (... ويزرعوها في قلوب أشباههم) وأرجأ بيان الاستعارة في قوله (حتى يودعوها نظراءهم) إلى موضعها من كتابه حين قال: «والوديعة واحدة الودائع وهي ما استودع، وقوله تعالى: ﴿ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ﴾ [الأنعام: ٩٨] المستودع ما في الأرحام، واستعاره علي - رضي الله عنه - للحكمة والحجة، فقال بهم يحفظ الله حججه حتى يودعوها نظراءهم ويزرعوها في قلوب أشباههم»[4].

فالوديعة في الأصل ما يودعه الإنسان عند غيره، وقد استعير الإيداع المفهوم من

(١) لسان العرب: ٣/١٨٢٦ (زرع).
(٢) أساس البلاغة (زرع).
(٣) زهر الآداب: ٣/٧٢٢.
(٤) لسان العرب: ٦/٤٧٩٩ (ودع).

(مستودع) للأجنة المودعة فى أرحام الأمهات، وتفسيره لمستودع بما فى الأرحام يشعر أنه اسم مفعول، ويكون (مستقر) اسم مكان يقصد منه الأرحام، وفيهما أقوال لأهل العلم ليس هذا موضعها.

ومن هذا اللون ما ذكره من استعارة (اللسع) و(اللدغ) وهو للحية والعقرب للإيذاء، والعيب بلسان الناس فقد قال: « ويقال لسعته الحية والعقرب... ولسعه بلسانه عابه وآذاه، ورجل لساع ولسعة عيابة قراصة للناس بلسانه... وفى الحديث لا يلسع المؤمن من جحر مرتين وفى رواية لا يلدغ[1] واللسع واللدغ سواء، وهو استعارة هنا أى لا يدهى المؤمن من جهة واحدة مرتين فإنه بالأولى يعتبر... ومعناه أن المؤمن هو الكيس الحازم الذى لا يؤتى من جهة الغفلة فيخدع مرة بعد مرة، وهو لا يفطن لذلك، ولا يشعر به »[2].

يقول: إن لسع الناس ولدغهم من الحية والعقرب حقيقة، ولكن لسعهم، ولدغهم بلسان إخوانهم فى الإنسانية استعارة، استعير الإيلام والإيذاء الحسى للإيلام المعنوى، وغنى عن البيان أن الاستعارة فى (لسع) و(لدغ) تبعية، يقال فلان يلسع الناس أى يؤذيهم، ويقرصهم[3] وتلك شنشة العقرب، ودأبها على حد قوله الشاعر:

يأبى فؤادى أن يميل إلى الأذى حب الأذية من طباع العقرب

وقد عبر صاحب اللسان عن هذه الاستعارة التبعية فى (يلسع) و(يلدغ) بلفظ (استعارة) فى قوله عقب الحديث النبوى (وهو استعارة هنا...) يقصد فى الحديث.

ويتراءى لى أنه يمكن إجراء استعارة تمثيلية فى الحديث الآنف الذكر، استعيرت فيه صورة من لدغته حية، أو عقرب ثم عاد إلى جحرها مرة أخرى، دون أن يتعظ، أو يعتبر بما جرى عليه فى المرة الأولى لصورة إنسان لحقه الضرر من صديق، أو رفيق - مثلا - وذاق المر من فعله، ثم غفل عما أصابه منه، وعاد سيرته الأولى يركن إليه، ويثق فيه، وقد نفى رسول الله ﷺ هذه الصورة عن المؤمن، لأنه كيس فطن لا ينخدع على حد قول عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - لست بالخب ولا الخب يخدعنى.

ومن هذا النوع ما ذكره من استعارة (التحجيل) وهو البياض الموجود فى قوائم

---

(١) الحديث فى كتاب النهاية فى غريب الحديث والأثر: ٤ / ٢٤٨.

(٢) لسان العرب: ٥ / ٤٠٢٩ (لسع). (٣) أساس البلاغة (لدغ).

الخيل، للبياض الذى يعلو أيدى المؤمنين، وأرجلهم يوم القيامة من آثار الوضوء فقد قال: « ... وفى الحديث فى صفة الخيل الأقرح المحجل قال ابن الأثير هو الذى يرتفع البياض فى قوائمه فى موضع القيد ويجاوز الأرساغ، ولا يجاوز الركبتين، لأنها مواضع الأحجال، وهى الخلاخيل والقيود ومنه الحديث أمتى الغر المحجلون أى بيض مواضع الوضوء من الأيدى والوجه، والأقدام استعار أثر الوضوء فى الوجه واليدين والرجلين للإنسان من البياض الذى يكون فى وجه الفرس ويديه ورجليه... »(١).

واضح أن الاستعارة هنا تبعية فى اسم المفعول (المحجلون) فالتحجيل، أو البياض الموجود فى أيدى الخيل، وأرجلها حقيقة لغوية، وقد استعير فى الحديث لأثر الوضوء فى أيدى المؤمنين، وأرجلهم يوم القيامة تمييزا لهم عمن عداهم، وقد عبر صاحب اللسان عن هذه الاستعارة بالفعل (استعار).

وقد ألمح إلى تلك الاستعارة فى موضع آخر دون أن يصرح بما يدل عليها حين قال: « .... وفى الحديث غر محجلون من آثار الوضوء، الغر جمع الأغر من الغرة بياض الوجه يريد بياض وجوههم بنور الوضوء يوم القيامة »(٢).

وقد وجدت هذا الحديث فى صحيح مسلم، وهو كما رواه « ... قال رسول الله ﷺ أنتم الغر المحجلون يوم القيامة من إسباغ الوضوء فمن استطاع منكم فليطل غرته وتحجيله » وقد شرح الإمام النووى الاستعارة فى الحديث فقال: « قال أهل اللغة الغرة بياض فى جبهة الفرس والتحجيل بياض فى يديها ورجليها قال العلماء سمى النور الذى يكون على مواضع الوضوء يوم القيامة غرة وتحجيلا تشبيها بغرة الفرس »(٣).

فقوله (تشبيها) يقصد منه الاستعارة لأن الحديث ليس فيه تشبيه اصطلاحى.

ومن هذا اللون ما ذكره من استعارة (مقدمة) الجيش، وهم الجنود الذين يتقدمون، لأول كل شىء فقد قال: « ومقدمة العسكر وقادمتهم، وقدماهم متقدموهم التهذيب مقدمة الجيش بكسر الدال أوله الذين يتقدمون »(٤).

ثم ذكر أن مقدمة الجيش هى من قدم بمعنى تقدم، ومنه قولهم المقدمة

---

(١) لسان العرب: ٢/٧٨٨ (حجل) والنهاية فى غريب الحديث والأثر: ١/٣٤٦.
(٢) المصدر نفسه: ٥/٣٢٣٤ (غرر). (٣) صحيح مسلم بشرح النووى: ١/٥٣١.
(٤) لسان العرب: ٥/٣٥٥٣ (قدم).

والنتيجة[١] وأضاف قائلاً: « ... وفى كتاب معاوية إلى ملك الروم لأكونن مقدمته إليك أى الجماعة التى تتقدم الجيش »[٢].

واستعمال المقدمة فى ذلك المعنى حقيقة لغوية، بدليل قوله بعد ذلك: « .. وقد استعير لكل شيء فقيل مقدمة الكتاب، ومقدمة الكلام بكسر الدال »[٣].

وقد أشار إلى أن الدال قد تفتح فيقال مقدمة الإبل والخيل ومقدمتهما، أول ما ينتج منهما ويلقح، ومقدم كل شيء نقيض مؤخره[٤].

ونقل عن بعضهم أن الفتح ليس لحنا؛ لأن غيره قدمه فهو مقدم[٥] وظاهر من كلامه أن المقدمة حقيقة فى جنود الجيش الذين يتقدمون صفوفه استعارة فيما عدا ذلك، فيمكن أن يقال مقدمة المصلين، ومقدمة الكتاب، ومقدمة الخطبة، وهى استعارة تبعية فى اسم الفاعل أو اسم المفعول، باعتبار كسر الدال، أو فتحها.

ومن هذا الضرب ما ذكره من استعارة الثوب المفْدَم. الذى أشبع صبغه للذل الشديد الذى ضرب الله به النصارى، فقد قال: « الفدم من الناس العيى عن الحجة والكلام... وهو أيضا الغليظ السمين الأحمق الجافى... والمفدم من الثياب المشبع حمرة، وأحمر فدم مشبع، والفدم الثقيل من الدم، وثوب فدم ساكنة الدال إذا أشبع صبغه، وثوب فدم إذا كان مصبوغا بحمرة مشبعا... وفى حديث أبى ذر أن الله ضرب النصارى بذل مفدم أى شديد مشبع فاستعاره من الذوات للمعانى »[٦].

فالثوب المفدم هو الذى أشبع صبغه أى بلغ درجة التشبع فى صباغته، فلا يقبل المزيد منها، وهذا - كما هو ظاهر - استعمال حقيقى، وقد استعيرت هذه الصفة للذل الذى بلغ أقصاه، وضرب الله به النصارى كما فى حديث أبى ذر المتقدم، وهى استعارة تبعية فى اسم المفعول (مفدم) عبر عنها صاحب اللسان بالفعل الماضى (استعار) فى قوله (فاستعاره من الذوات للمعانى).

وهى استعارة محسوس لمعقول، أو ذات لمعنى على حد تعبيره.

---

(١) ينظر المصدر نفسه: ٥/ ٣٥٥٤ (قدم).

(٢) المصدر نفسه والموضع.

(٣) المصدر نفسه والموضع.

(٤) المصدر نفسه والموضع.

(٥) المصدر نفسه والموضع.

(٦) لسان العرب: ٥/ ٣٣٦٥ (فدم). والنهاية فى غريب الحديث والأثر: ٣/ ٤٢١.

ويلاحظ أن اللفظ المستعار منه هنا له عدة معان أصلية، وقد استعير أحدها دون غيره؛ لأن غرض الاستعارة يتعلق، ويتحقق به دون سواه.

ومن هذا النوع ما ذكره من استعارة (مقيلة) وهو موضع القائلة لموضع الهامة من الجسم فقد قال: «القائلة الظهيرة يقال أتانا عند القائلة، وقد تكون بمعنى القيلولة أيضًا، وهو النوم فى الظهيرة... والمقيل أيضًا الموضع... ومنه حديث الجنائز هذه فلانة ماتت ظهرا وأنت صائم قائل أى ساكن فى البيت عند القائلة وفى شعر ابن رواحة:

اليوم نضربْكم على تنزيله ضربا يزيل الهام عن مقيله

الهام جمع هامة، وهى أعلى الرأس، ومقيله موضعه مستعار من موضع القائلة»(١).

الاستعارة فى (مقيله) تبعية فى اسم المكان، وهى استعارة محسوس لمحسوس، وفيها إيماء إلى أن رءوس الكفار، مؤقتة فى أماكنها كوقت القيلولة لا تلبث إلا ريثما تمحقها سيوف المسلمين (ولينصرن الله من ينصره).

ومن هذا اللون ما ذكره من استعارة الطريف والتليد أى الجديد والقديم من المال للمكارم المكتسبة المستحدثة، والموروثة عن الآباء والأجداد، فقد قال: «قال عدى بن الرقاع يمدح الوليد بن عبدالملك:

غلب المساميح الوليد سماحة وكفى قريش المعضلات وسادها

وإذا نشرت له الثناء وجدته ورث المكارم طرفها وتلادها

المساميح جمع مسماح، وهو الكثير السماحة. والمعضلات الأمور الشداد، يقول إذا نزل بهم معضلة، وأمر فيه شدة، قام بدفع ما يكرهون عنهم، ويروى: جمع المكارم، وقوله طرْفها أراد طرفها فأسكن الراء تخفيفا، وإقامة للوزن، وهو جمع طريف، وهو ما استحدثه من المال، والتلاد ما ورثه، وهو المال القديم فاستعاره للكرم»(٢).

---

(١) لسان العرب: ٥/٣٧٩٧ (قيل). والنهاية فى غريب الحديث والأثر: ٤/١٣٣، ١٣٤.
(٢) لسان العرب: ٥/٣٥٨٦ (قرش).

ويبدو أن رواية جمع المكارم التى ألمح إليها صاحب اللسان هى المناسبة للمعنى؛ لأن الفعل (ورث) لا يوائم الكرم. المكتسب الذى أتى به الممدوح من تلقاء نفسه.

وقد أورد صاحب لسان العرب عقب كلامه الآنف الذكر ما قاله بعضهم: إن من المستحسن لعدى بن الرقاع فى القصيدة التى منها هذان البيتان، ولم يسبق إليه فى صفة ولد الظبية قوله:

تزجى أغن كأن إبرة روقه قلم أصاب من الدواة مدادها

وهذا البيت وما فيه من تشبيه مشتهر لدى البلاغيين شهرة فائقة تغنى عن أى قول فيه:

ثانيتها: أن يعبر عن الاستعارة التبعية بلفظ التشبيه، أو ما اشتق منه.

ومن هذا النوع ما ذكره من استعارة الإحراق، أو الاحتراق للهلاك فقد قال: « ... وأحرقه بالنار وحرقه - بتشديد الراء - شدد للكثرة... وفى حديث المظاهر احترقت أى هلكت، ومنه حديث المجامع فى نهار رمضان احترقت شبها ما وقعا فيه من الجماع فى المظاهرة والصوم بالهلاك، وفى الحديث أنه أوحى إلى أن أحرق قريشا أى أهلكهم، وحديث قال الردة فلم يز ل يحرق أعضاءهم حتى أدخلهم من الباب الذى خرجوا منه»(١).

الاستعارة فى قول كل منهما (احترقت) استعير الاحتراق للهلاك، والقرينة ضمير المتكلم فى (احترقت) ومخاطبتهما لرسول الله ﷺ، وقد عبر عنها بالفعل (شبه) وأراد التشبيه الذى تبنى عليه الاستعارة؛ لأن الكلام ليس فيه تشبيه اصطلاحى.

وقد ظفرت بحديث المجامع فى نهار رمضان فى صحيح مسلم فعن عائشة - رضى الله عنها - أنها قالت جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال احترقت قال رسول الله ﷺ لم؟ قال وطئت امرأتى فى رمضان نهارا قال تصدق تصدق قال ما عندى شىء فأمره أن يجلس فجاءه عرقان(٢) فيهما طعام فأمره رسول الله ﷺ أن يتصدق به(٣).

---

(١) لسان العرب: ٢ / ٨٤٠ (حرق). والنهاية فى غريب الحديث والأثر: ١ / ٣٧١.

(٢) العرق بفتح العين والراء ضفيرة تنسج من خوص، وهو المكتل والزنبيل. مختار الصحاح (عرق).

(٣) صحيح مسلم بشرح النووى: ١ / ١٧١.

قال الإمام النووى – رحمه الله – قوله: (احترقت فيه استعمال المجاز، وأنه لا إنكار على مستعمله[١].

ومن هذا الضرب ما ذكره من استعارة انفجار الماء ونحوه، لكثرة انثيال الدواهى على الناس، ومفاجأتهم بها، وإفاضة القوم على عدوهم بغتة، فقد قال «الفجر ضوء الصباح، وهو حمرة الشمس فى سواد الليل، وهما فجران، أحدهما المستطيل الكاذب الذى يسمى ذنب السرحان، والآخر المستطير الصادق المنتشر فى الأفق الذى يحرم الأكل والشرب على الصائم... والفجر تفجيرك الماء، والمفجر الموضع ينفجر منه، وانفجر الماء ونحوه من السيال وتفجر انبعث سائلا، والمفجرة والفجرة بالضم منفجر الماء من الحوض وغيره... وانفجرت عليهم الدواهى أتتهم من كل وجه كثيرة بغتة، وانفجر عليهم القوم وكله على التشبيه»[٢].

نلحظ أن صاحب اللسان صدر كلامه بعدة استعمالات من مادة (فجر) بدأها بالفجر، وهو ضوء الصباح، وأضاف الفجر أى تفجير الماء، وانفجار الماء ونحوه من سائر السوائل، والمفجر أي الموضع الذى يتفجر منه الماء... وأتى فى عجز كلامه بالاستعارة فى قوله:

وانفجرت عليهم الدواهى إلخ.

استعير انفجار الماء ونحوه لانفجار الدواهى، وإتيانها بكثرة على سيل المباغتة والمفاجأة، وهى استعارة محسوس لمعقول، واستعير انفجار الماء ونحوه، لإفاضة الأعداء على عدوهم من كل صوب، وحدب، وهى استعارة محسوس لمحسوس.

وقد عبر صاحب اللسان عن تلك الاستعارة بشطريها بلفظ التشبيه حين قال فى إثرها (وكله على التشبيه) يعنى الاستعارة لأنه لا أثر للتشبيه الاصطلاحى فى كلامه.

ويؤكد أمر هذه الاستعارة قول الزمخشرى وابن حجر العسقلانى – رحمهما الله – انفجر عليهم العدو إذا جاءهم بغته بكثرة، وانفجرت عليهم الدواهى[٣].

ومن هذا اللون ما ذكره من استعارة الاحتدام، وهو شدة الحر، أو التهاب النار،

(١) المرجع نفسه والموضع.
(٢) لسان العرب: ٥/٣٣٥١ (فجر).
(٣) أساس البلاغة (فجر) وغراس الأساس (فجر).

لامتلاء الصدر بالغيظ، فقد قال: « . . . الحدم شدة إحماء الشيء بحر الشمس، والنار تقول حدمه كذا فاحتدم، وقال الأعشى:

وإدلاج ليل على غرة وهاجرة حرها محتدم

. . . وحدمة النار بالتحريك صوت التهابها، وهذا يوم محتدم، ومحتمد شديد الحر، والاحتدام شدة الحر ابن سيده حدم النار والحر وحدمهما شدة احتراقهما وحميهما الجوهرى احتدمت النار التهبت غيره احتدمت النار والحر اتقدا، واحتدم صدر فلان غيظا، واحتدم على غيظا، وتحدم تحرق، وهو على التشبيه بذلك »(١).

ذكر صاحب اللسان فى وجه كلامه المتقدم عدة استعمالات حقيقية للاحتدام كاحتدام النار والنهار أى شدة حرهما وغير ذلك، وذكر فى مؤخرة كلامه استعارة هذا الاحتدام لامتلاء الصدر بالغيظ، واشتعاله فى جنباته حتى كاد أن يتفطر، ويتميز، وهى استعارة تبعية فى الفعل الماضى احتدم، وتحدم.

عبر عنها بلفظ التشبيه فى قوله (واحتدم صدر فلان غيظا . . . وهو على التشبيه) وواضح أنه يعنى بالتشبيه هنا الاستعارة، لأنه لا يوجد فى هذا الكلام تشبيه مصطلح عليه.

ويدعم أمر هذه الاستعارة قول الزمخشرى. . احتدم الحر، واحتدم النهار اشتد حره . . . ومن المجاز احتدم صدر فلان غيظا، وهو يتحدم على يتغيظ(٢).

ومن هذا الضرب ما ذكره من استعارة تناسق الأسنان، وحسن تنضيدها فى الفم، لترتيل الكلام، وإحسان تأليفه، والتؤدة فيه والترسل فى القراءة، والتمهل فيها فقد قال: « . . . وثغر رتل، ورتل حسن التنضيد مستوى النبات(٣) وقيل المفلج، وقيل بين أسنانه فروج، لا يركب بعضها بعضا وربما قالوا رجل رتل الأسنان مثل تعب بين

---

(١) لسان العرب: ٢/٨٠٧ (حدم). (٢) أساس البلاغة (حدم).

(٣) ذكر صاحب لسان العرب فى موضع آخر أن النبتة شكل النبات وحالته التى ينبت عليها (بكسر نون النبتة) والنبتة بفتحها الواحدة من النبات: ٦/٤٣١٨ (نبت).

وفى أساس البلاغة: ثغر مرتل ورتل ورتِل مفلج مستوى النبتة حسن التنضيد (رتل).

الرتل إذا كان مفلج الأسنان، وكلام رتل ورتل أي مرتل حسنٌ على تؤدة، ورتل الكلام أحسن تأليفه، وأبانه، وتمهل فيه، والترتيل في القراءة الترسل فيها، والتبيين من غير بغى، وفي التنزيل العزيز ﴿ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ﴾ [المزمل: ٤]... وقال مجاهد الترتيل الترسل، قال ورتلته ترتيلا بعضه على أثر بعض، قال أبو منصور ذهب به إلى قولهم ثغر رتل إذا كان حسن التنضيد... »(١).

ويتابع صاحب لسان العرب كلامه قائلاً: « ... وفي صفة قراءة النبي ﷺ كان يرتل آية آية، ترتيل القراءة التأني فيها، والتمهل، وتبيين الحروف والحركات تشبيها بالثغر المرتل... وقوله عز وجل ﴿ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾ [الفرقان: ٣٢] أي أنزلناه على الترتيل وهو ضد العجلة والتمكث فيه »(٢).

ينبيء كلام صاحب اللسان ومن نقل عنهم أن الثغر المرتل، المنضد الأسنان، المفلج، حقيقة لغوية، أما الكلام المرتل، والمبين، والقراءة المرتلة، فهما من قبيل الاستعارة، وقد عبر عن تلك الاستعارة، وهو بصدد بيان صفة قراءة النبي ﷺ المذكورة في عجز كلامه المتقدم بقوله: (ترتيل القراءة التأني فيها، والتمهل... تشبيها بالثغر المرتل).

فقوله (تشبيها...) يقصد منه الاستعارة على غرار ما تقدم، ويؤكد أمر الحقيقة والاستعارة في كلامه قول الزمخشري: ثغر مرتل، ورتل مفلج، مستوى النبتة، حسن التنضيد، ومن المجاز رتل القرآن ترتيلا، إذا ترسل في تلاوته، وأحسن تأليف حروفه، وهو يترسل في كلامه، ويترتل(٣).

ويعزز ذلك ما قاله في إبانة معنى ترتيل القراءة في آية المزمل من كلام يكاد يكون موافقا لكلام صاحب اللسان حولها، وكأنهما يمتحان من بئر واحدة، أو ينقلان عن أصل واحد، فقد قال: « ترتيل القرآن قراءته على ترسل، وتؤدة بتبيين الحروف، وإشباع الحركات، حتى يجيء المتلو منه شبيها بالثغر المرتل، وهو المفلج المشبه بنور الأقحوان، وألا يهذه هذا أي يسرع في قراءته – ولا يسرده سردا، وسئلت عائشة –

---

(١) لسان العرب: ٣/١٥٧٨ (رتل).
(٢) لسان العرب: ٣/١٥٧٨ (رتل). والنهاية في غريب الحديث والأثر: ٢/١٩٤.
(٣) أساس البلاغة (رتل).

رضى الله عنها – عن قراءة النبى ﷺ فقالت لا كسردكم هذا لو أراد السامع أن يعد حروفها، لعدها»[١].

ومن هذا الضرب ما ذكره من استعارة (رثم) الأنف، والفم، وهو تلطخهما بالدم بعد كسرهما، وجرحهما، لطلاء المرأة أنفها، أو فمها بالطيب، فقد قال: «ورثم أنفه وفاه يرثمه رثما فهو مرثوم ورثيم إذا كسره حتى تقطر منه الدم، وكذلك رثمه بالتاء، وكل ما لطخ بدم أو كسر فهو رثيم... ورثمت المرأة أنفها بالطيب لطخته، وطلته، وهو على التشبيه»[٢].

فالأنف، أو الفم الذى لطخ بالدم حقيقة لغوية – كما أبان وأوضح – فى صدر كلامه، وقد استعير ذلك كما ذكر فى عجز كلامه المتقدم لتضميخ كل من الأنف، والفم بالطيب، وهذه استعارة تبعية فى الفعل الماضى (رثم) أو فى اسم المفعول (مرثوم) اللذين جاءا فى كلامه الآنف الذكر. وقد عبر عن هذه الاستعارة بلفظ التشبيه عندما قال (... وهو على التشبيه) وواضح أنه يريد بالتشبيه الاستعارة كما يدل على ذلك مقام الكلام.

ويتراءى لى أن هذه الاستعارة فيها سماجة، وقبح؛ لأن الدم الذى يجلل الأنف، أو الفم المكسور، أو المجروح، ويكسوه، يثير فى النفس الاشمئزاز، والتقزز، والرثاء فلا يتلاءم مع وضع الطيب الذى يفترض فيه أن يمتع النفس، ويسعدها، ويدخل عليها البهجة والسرور، فشتان ما بينهما.

وقد أورد صاحب اللسان عقب تلك الاستعارة تشبيها صريحا يشينه هذا العيب أيضًا حين قال: «قال ذو الرمة يصف امرأة:

تثنى النقاب على عرنين أرنبة   شماء ما رنها بالمسك مرثوم

قال الأصمعى الرثم أصله الكسر، فشبه أنفها ملغما[٣] بالطيب بأنف مكسور، ملطخ بالدم، كأنه جعل المسك فى المارن شبيها بالدم فى الأنف المرثوم»[٤] واضح أن التشبيه فى قول الشاعر (ما رنها.. مرثوم) المارن هو الأنف وهذا تشبيه بليغ.

---

(١) الكشاف: ٤/١٥٢.   (٢) لسان العرب: ٣/١٥٨٢ (رثم).
(٣) ملغما: أى وضع عليه الطيب. انظر لسان العرب: ٥/٤٠٤٩ (لغم).
(٤) المصدر نفسه: ٣/١٥٨٢ (رثم).

فالشاعر يمدح هذه المرأة، ويصفها بأنها شماء العرنين، شريفة، رفيعة القدر، وهذا يعني أن الغرض من التشبيه تزيينها، والثناء عليها، ووصف مارنها الملغم بالطيب بكونه يشبه أنفا مكسورا ملطخا بالدماء يقبحها، وينفر النفوس منها.

ومن هذا النمط ما ذكره من استعارة تفديم الأفواه (بالفاء) وهو وضع شيء عليها كالكعام يمنعها من الأكل، لمنع الناس واحتباس ألسنتهم عن الكلام، فقد قال:
« ... والفدام شيء تشده العجم على أفواهها عند السقي الواحدة فدامة، وأما الفدام فإنه مصفاة الكوز والإبريق ونحوه... وفدم فاه وعلى فيه بالفدام يفدم فدما وفدم وضعه عليه، وغطاه، ومنه رجل فدم أى عيى ثقيل بين الفدامة، والفدومة وفى الحديث إنكم مدعوون يوم القيامة مفدمة أفواهكم بالفدام. هو ما يشد على فم الإبريق والكوز من خرقة لتصفية الشراب الذى فيه أي أنهم يمنعون الكلام بأفواههم حتى تتكلم جوارحهم وجلودهم، فشبه ذلك بالفدام»[1].

الاستعارة التبعية هنا فى اسم المفعول (مفدّمة) فى الحديث الذى أورده (... مفدمة أفواهكم بالفدام) مأخوذ من الفعل الماضى (فدم) المضعف - كما لا يخفى-.

استعير وضع الفدام على الفم لمنع أفواههم، وحبسها عن الكلام حتى لا ينبسوا ببنت شفة إلى أن ينطق الله جوارحهم فتشهد عليهم بما قدمت أيديهم.

وقد عبر عنها بالفعل (شبه) فى قوله (فشبه ذلك بالفدام) والمقصود من ذلك التشبيه الاستعارة كما ينطق بذلك سياق الكلام.

ثالثتها: أن يعبر عن الاستعارة التبعية بأنها (مثل) ومن هذا النوع ما ذكره من استعارة الفراغ من الأشياء المحسوسة، للخلو من الشيء في المعقولات، فقد قال:
«الفراغ الخلاء فرغ يفرغ فراغا وفروغا... وفى التنزيل ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا﴾ [القصص: ١٠].. أى خاليا من الصبر... وفرغ المكان أخلاه... واستفرغت مجهودى فى كذا أى بذلته يقال استفرغ فلان مجهوده إذا لم يبق من جهده وطاقته شيئًا، وفرغ الرجل مات مثل قضى، وهو على المثل؛ لأن جسمه خلا من روحه»[2].

---

(١) لسان العرب: ٥/ ٣٣٦٥ (فدم). والنهاية في غريب الحديث والأثر: ٣/ ٤٢١.
(٢) لسان العرب: ٥/ ٣٣٩٦ (فرغ).

يبدو من خلال تلك الكلمات أن تفريغ المكان مما فيه حقيقة، أما فراغ القلب من الصبر، وهو أمر معنوى، وبذل الجهد والطاقة واستفراغهما فى العمل - استعارة، يؤكد ذلك ما ذكره الزمخشرى من أن قولنا استفرغ فلان مجهوده من المجاز[1].

ومن الاستعارة كذلك ما ذكره صاحب اللسان فى عجز كلامه المتقدم فى قوله (وفرغ الرجل مات... وهو على المثل إلخ) واضح أن الاستعارة التبعية فى الفعل الماضى (فرغ) وقد عبر عنها بكلمة (المثل) وكأنه اعتبر الروح عرضا يسرى فى ثنايا الجسم كله، فلما فرغ ذلك العرض من الجسم فارق الحياة.

وفى مادة (فرغ) نفسها أشار إلى أن الإفراغ وهو صب الماء ونحوه يستعار لإنزال الصبر.

فقد قال: «... والإفراغ الصب، وفرغ عليه الماء، وأفرغه صبه... وأنشد:

فرغن الهوى فى القلب ثم سقينه صبابات ماء الحزن بالأعين النجل

وفى التنزيل ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً﴾ [البقرة: ٢٥٠] أى أصبب، وقيل أنزل علينا صبرا يشتمل علينا وهو على المثل»[2].

فإفراغ الماء أى صبه حقيقة كما يتجلى ذلك من كلامه، وفراغ الهوى فى قول الشاعر (فرغن الهوى فى القلب...) استعارة، ولا يخفى أنها استعارة محسوس لمعقول، استعار فراغ الماء أى صبه لفراغ الحب والهوى فى القلب، وهى استعارة تبعية فى الفعل الماضى (فرغ) وفى الآية الكريمة ﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً﴾ استعير إفراغ الماء لإنزال الصبر والطمأنينة على القلب، وقد أومأ إلى تلك الاستعارة بكلمة (المثل) ويريد بها الاستعارة.

ومن هذا النوع ما أشار إليه من استعارة إبقال النبت، وهو خروجه من الأرض لطلوع شعر اللحية، وناب البعير فقد قال: «وبقل النبت يبقل بقولا وأبقل طلع، وأبقله الله، وبقل وجه الغلام يبقل بقلا... خرج شعره... وأبقله الله أخرجه، وهو على المثل... وفى حديث أبى بكر والنسابة فقام إليه غلام من بنى شيبان حين بقل

---

(١) أساس البلاغة (فرغ).

(٢) لسان العرب: ٥/٣٣٩٦ (فرغ).

وجهـه أى أول مـا نبـتت لحيـتـه، وبقل ناب البـعـيـر يبـقل بقـولا طلع على المثل أيضًا . . .»[١].

فإبقال النبت أى طلوعه فى الأرض حقيقة كما يتبدى ذلك من صدر كلامه الآنف الذكر، أما إبقال وجه الغلام، وإبقال ناب البعير، فذلك من قبيل الاستعارة، وهى استعارة محسوس لمحسوس، استعار إبقال النبات لطلوع شعر لحية الغلام، وطلوع ناب البعير.

وقد يؤكد ذلك ما قاله الزمخشرى أبقلت الأرض إذا اخضرت بالنبات، ومن المجاز بقل وجه الغلام وبقل ناب البعير[٢] وغير خاف أنها استعارة تبعية فى بقل، ويبقل -كما قال – وقد ألمع إليها بكلمة (المثل).

ويلاحظ أن فى (.. وجه الغلام) مجاز مرسل علاقته المحلية، أطلق المحل وهو الوجه وأريد به الحال، وهو شعر الوجه، وفى هذا المجاز إيماء إلى غزارة ذلك الشعر، وكثافته.

ومن هذا اللون ما لمع إليه من استعارة فعومة الوجه والساق ونحوهما وهو امتلاؤهما، لامتلاء البيت طيبا فقد قال: «الفعم والأفعم الممتلىء... وساعد فعم، فعم يفعم فعامة وفعومة فهو فعم ممتلىء ووجه فعم، وجارية فعمة وافعوعم قال كعب يصف نهرا:

مفعوعـمٌ صخبُ الآذى منبعقٌ كأن فيه أكف القوم تصطفق[٣]

وفى صفته ﷺ كان فعم الأوصال أى ممتلىء الأعضاء... وأفعمت البيت برائحة العود فافعوعم، وأفعم المسك البيت ملأه بريحه، وأفعم البيت طيبا ملأه وهو على المثل...»[٤].

واضح من كلامه المتقدم أن فعومة الوجه، والساعد، والساق، والأوصال،

---

(١) لسان العرب: ١ /٣٢٩ (بقل). والنهاية فى غريب الحديث والأثر: ١ /١٤٨.

(٢) أساس البلاغة (بقل).

(٣) الآذى : الموج الشديد والجمع: أوازى (المعجم الوجيز) والمنبعق: شديد الاندفاع، ينظر لسان العرب: ١ /٣١٤ (بعق).

(٤) لسان العرب: ٥ /٣٤٣٩، ٣٤٤٠ (فعم). والنهاية فى غريب الحديث والأثر: ٣ /٤٦٠.

والنهر، ونحو ذلك حقيقة، أما ما ذكره من مثل أفعمت البيت برائحة العود، وأفعم المسك البيت،فهو استعارة تبعية فى الفعل (أفعم) وقد أشار إليها بكلمة (المثل) فى عجز كلامه المتقدم، ويؤكد كلامه فى هذا الصدد قول الزمخشرى ومن المجاز أفعمت البيت طيبا، وأفعمته غضبا(١).

ومن هذا الضرب ما أشار إليه من استعارة سوغ الشراب والطعام فى الحلق، لسهولة أول النهار فقد قال: ساغ الشراب فى الحلق يسوغ سوغا وسواغا سهل مدخله فى الحلق، وساغ الطعام سوغا نزل فى الحلق... وقول عبدالله بن مسلم الهذلى:

قد ساغ فيه لهـــا وجـــه النهــار كما ساغ الشراب لعطشان إذا شربا

أراد سهل فاستعمله فى النهار على المثل»(٢).

واضح من أول كلامه المتقدم أن سوغ الشراب والطعام فى الحلق حقيقة على حد قول الشاعر:

وساغ لى الشراب وكنت قبلا أكاد أغص بالماء الفرات(٣)

أما سوغ النهار، أو وجه النهار أى أوله فهو استعارة استعير فيها المحسوس وهو سهولة دخول الطعام والشراب فى الحلق، للمعقول أعنى سهولة وجه النهار وطيبه وهناءته، وهى تبعية فى الفعل (ساغ) فى الشطر الأول، وقد عبر عنها بكلمة (المثل) ويقصد منها الاستعارة.

ومن هذا القبيل ما ألمع إليه من استعارة الدحوض، وهو الزلق لإبطال الحجة فقد قال: «الدحض الزلق، والإدحاض الإزلاق... ودحضت رجل البعير... وفى حديث الجمعة كرهت أن أخرجكم فى الطين، والدحض أى الزلق... وفى حديث الحجاج فى صفة المطر فدحضت التلاع أى صيرتها مزلقة، ودحضت حجته دحوضا كذلك على المثل إذا بطلت وأدحضها الله، قال الله تعالى: ﴿ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ ﴾ [الشورى: ١٦] وأدحض حجته إذا أبطلها..»(٤).

---

(١) أساس البلاغة (فعم). (٢) لسان العرب: ٣/٢١٥٢ (سوغ).

(٣) شرح قطر الندى وبل الصدى لابن هشام: ٢١، شرح الشيخ محمد محيى الدين عبدالحميد.

(٤) لسان العرب: ٢/١٣٣٥ (دحض). والنهاية فى غريب الحديث والأثر: ٢/١٠٤.

الدحض فى الشطر الأول من كلامه السابق حقيقة، وقد بين أن المكان الدحض بسكون الحاء وفتحها هو الذى تزل فيه الأقدام، ولا تثبت عليه لملاسته[1] فيقال دحضت رجل البعير إذا زلقت وزلت، ودحضت الأمطار الطريق، إذا صيرتها مزلقة مزلة. أما الدحض فى الشطر الأخير من كلامه، فهو استعارة تبعية فى الفعل الماضى فى قوله: «ودحضت حجته دحوضا كذلك على المثل) وقد عبر عنها بكلمة المثل.

وهى استعارة محسوس لمعقول، استعير فيها دحض رجل البعير - مثلا - فى الزلق، فيسقط على الأرض، وربما ينفق، ويهلك وذلك أمر محسوس، لإبطال حجة الخصم، وإزالتها، وإزهاقها، وذلك أمر معقول.

رابعتها: أن يجمع فى التعبير عنها بين الاستعارة والاتساع، كما ذكر فى استعارة عدم الدثور - أى عدم القدم - لقدم الحسب، وعدم بلاه فقد قال: «الدثور الدروس قد دثر الرسم، وتداثر، ودثر الشيء يدثر دثورا، واندثر قدم ودرس، واستعار بعض الشعراء ذلك للحسب اتساعا فقال:

فى فتية بسط الأكف مسامح   عند القتال قديمهم لم يدثر

أى حسبهم لم يبل ولا درس»[2].

وهذه استعارة تبعية فى الفعل المضارع المنفى (يدثر) أى أنّ حسبهم تليد، توارثوه كابرا عن كابر، ولا يزال فى قمة جدته، لم يخلق، أو يلحقه البلى.

ومن الجمع فى التعبير عنها بين الاستعارة والمثل فى موضعين ما ذكره من استعارة نسج الثوب لتلفيق الكذب، ونظم الشعر وغيرهما، فقد قال فى أحد الموضعين: «.. والنسج معروف، ونسج الحائك الثوب ينسجه وينسجه نسجا.. لأنه ضم السدى إلى اللحمة[3] وهو النساج وحرفته النساجة... ونسج الكذاب الزور لفقه، ونسج الشاعر الشعر نظمه، والشاعر ينسج الشعر، والكذاب ينسج الزور، ونسج الغيث النبات كله على المثل..»[4].

---

(١) المصدر نفسه، والموضع.   (٢) لسان العرب: ٢/١٣٢٦ (دثر).

(٣) اللُّحْمة من الثوب خيوط النسج العرضية يلحم بها السدى، والسَّدَى من الثوب خلاف اللحمة، وهو ما يمد طولا فى النسيج الواحد سداة.

ينظر المعجم الوجيز (لحم) و(سدى).

(٤) لسان العرب: ٦/٤٤٠٦ (نسج).

فقد استعير نسج الثوب وحياكته لتلفيق الكذب والزور، وكذلك استعير نسج الثوب لنظم الشعر وتأليفه، واستعير كذلك لإخراج الغيث النبات، وتزيين الأرض به، وقد سمى صاحب اللسان كل ذلك مثلا.

وقد سبق فى موضع آخر أنه سمى استعارة صوغ الذهب والفضة لصوغ الزور، ونظم الشعر، وهى نظيرة الاستعارة التى نحن بصددها سماها استعارة[١] فيكون قد جمع فى التعبير عنها بين الاستعارة والمثل.

خامستها: أن يجمع وهو يعبر عنها بين الاستعارة والمثل، ومن ذلك ما أومأ إليه من استعارة الشبع من الذوات، والمحسوسات للمعانى، فقد قال: «الشبع ضد الجوع، وهو شبعان، والأنثى شبعى وشبعانه... وأشبع الثوب وغيره رواه صبغا، وقد يستعمل فى غير الجواهر على المثل، كإشباع النفخ والقراءة، وسائر اللفظ، وكل شئ توفره فقد أشبعته حتى الكلام يشبع فتوفر حروفه، وتقول شبعت من هذا الأمر ورويت إذا كرهته، وهما على الاستعارة»[٢].

واضح من كلامه المذكور أن الشبع الذى هو ضد الجوع حقيقة، كما فى قول القائل -مثلا- شبعت من هذا الطعام.

ويستعمل فى غير ذلك على المثل كما قال (وقد يستعمل فى غير الجواهر على المثل) كما فى قولنا أشبعت القراءة، أو الكلام.

وقد أضاف قائلا (وتقول شبعت من هذا الأمر، ورويت إذا كرهته، وهما على الاستعارة).

الاستعارة كما لا يخفى فى (شبعت... ورويت) وهى تبعية، وقد جمع فى هذا الموضع بين لفظ الاستعارة، وكلمة المثل، ويريد بهما الاستعارة.

ويؤكد أمر هذه الاستعارة، قول الزمخشرى: ومن المجاز شبعت من هذا الأمر، ورويت إذا مللته وكرهته، وأشبع الثوب صبغا، وثوب شبيع الغزل كثيره، وأشبع الرجل كلامه، وساق فى هذا المعنى فصلا مشبعا، وكل ما وفرته فقد أشبعته[٣].

---

(١) سبق ذكر هذه الاستعارة فى التبعية التى أطلق عليها لفظ الاستعارة، أو ما اشتق منه.

(٢) لسان العرب: ٤/ ٢١٨٧ (شبع).   (٣) أساس البلاغة (شبع).

سادستها : أن يجمع فى التعبير عنها بين المثل والمجاز فقد أشار إلى استعارة ذوق الأشياء باللسان ليعرف طعمها، وهو من المحسوسات، لذوق المكروه والعذاب، ونحوهما، وهى أمور معنوية عقلية، وعبر عن تلك الاستعارة مرة بالمجاز، ومرة بالمثل فقد قال: «الذوق مصدر ذاق الشىء يذوقه ذوقا، وذواقا ومذاقا، فالذواق، والمذاق يكونان مصدرين، ويكونان طعما كما تقول ذواقه، ومذاقه طيب، والمذاق طعم الشىء... وذاق العذاب والمكروه، ونحو ذلك وهو مثل وفى التنزيل: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩] وفى حديث أحد أن أبا سفيان - قبل إسلامه - لما رأى حمزة رضى الله عنه مقتولا قال له ذق عقق أى ذق طعم مخالفتك لنا، وتركك دينك الذى كنت عليه ياعاق لقومه، جعل إسلامه عقوقا، وهذا من المجاز أن يستعمل الذوق، وهو ما يتعلق بالأجسام فى المعانى...[١].

يتجلى من صدر كلامه السابق أن ذوق الأشياء باللسان؛ ليخبر مذاقها حقيقة، ويتبدى فى أواخر كلامه أن هذا الذوق يستعار للأمور المعنوية فيقال ذاق فلان العذاب، والمكروه، ونحوهما، ومنه - كما قال - قوله تعالى لمن يعذب فى النار، ويصلى سعيرها (ذق.. الآية) وهى استعارة تبعية فى الفعل (ذاق..) أو (ذق..) وقد عبر عنها مرة بالمجاز، ومرة بالمثل - كمال رأينا فى ثنايا كلماته - ويلاحظ أنه أشار فى هذا الموضع إلى المحسوسات بالأجسام، وإلى المعقولات بالمعانى.

سابعتها : أن يجمع فى التعبير عنها بين التشبيه والتمثيل فقد أشار فى أحد المواضع إلى أن تلقين الإمام القراءة إذا استغلقت عليه فى الصلاة مستعار من إطعام الطعام لمن طلبه، واحتاج إليه فقال: «الطعام اسم جامع لكل ما يؤكل... واستطعمه سأله أن يطعمه، وفى الحديث إذا استطعمكم الإمام فأطعموه أى إذا أرتج عليه فى الصلاة واستفتحكم فافتحوا عليه ولقنوه، وهو من باب التمثيل تشبيها بالطعام كأنهم يدخلون القراءة فى فيه كما يدخل الطعام...»[٢].

فاستعمال الطعام فى المأكول حقيقة، كما هو واضح من أول كلامه، وقد أشار فى آخره، إلى أن الاستطعام يستعار للحاجة إلى الإقراء، وأن إسعاف الإمام بتلقينه

---

(١) لسان العرب: ٣/١٥٢٧ (ذوق). وينظر النهاية فى غريب الحديث والأثر ٢/١٧٢.

(٢) لسان العرب: ٤/٢٦٧٣، ٢٦٧٤ (طعم).

القراءة إذا أرتج عليه فى الصلاة مستعار من إطعام الطعام لمن طلبه، واحتاج إليه، وهى استعارة تبعية فى (استطعمكم) و(فاطعموه) وقد جمع فى تبيانها بين التشبيه والتمثيل، ولا تشبيه مصطلح عليه فى الحديث الذى هو بصدده، إنما هو التشبيه الذى تنبنى عليه الاستعارة، وقد أبانه بقوله (كأنهم يدخلون القراءة فى فيه كما يدخل الطعام) وهو كعادته عندما يتناول الأحاديث ينقل عن ابن الأثير - أحيانا- الكلام بنصه وفصه، وهو مقر بذلك، وراض عنه كل الرضا - وقد أشرت إلى ذلك قبلا - يقول ابن الأثير: « ... وفيه إذا استطعمكم الإمام فأطعموه أى إذا ارتج عليه فى قراءة الصلاة واستفتحكم فافتحوا عليه ولقنوه، وهو من باب التمثيل تشبيها بالطعام كأنهم يدخلون القراءة فى فيه كما يدخل الطعام »(١).

ويمكن تكون الاستعارة فى الحديث تمثيلية استعيرت فيها صورة من يطعم الطعام للجائعين لصورة من يلقن الإمام القراءة، لكن قوله (تشبيها بالطعام . .) هكذا بالطعام على حدته جعلنى أذكرها فى التبعية.

ثامنتها: ألا يصرح بشىء مما سبق ذكره، ولكن تناوله لها، وتوضيحه لمعناها يشعر أنها استعارة تبعية، فمن ذلك ما أشار إليه من استعارة التغمد وهو غمد السيف فى جرابه، للستر، والتغشية برحمة الله، فقد قال: « الغمد جفن السيف، وجمعه أغماد وغمود... وتغمده الله برحمته غمده فيها وغمره بها، وفى الحديث أن النبى ﷺ قال ما أحد يدخل الجنة بعمله قالوا ولا أنت قال ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته قال أبو عبيد قوله يتغمدنى يلبسنى ويتغشانى ويسترنى بها.

قال: أى أبو عبيد - يعنى أنه يلقى نفسه عليهم ويركبهم ويغشيهم قال ولا أحسب هذا إلا مأخوذا إلا من غمد السيف، وهو غلافه؛ لأنك إذا أغمدته فقد ألبسته إياه، وغشيته به »(٢).

لا يخفى أن الاستعارة فى (يتغمدنى) وهى تبعية فى الفعل المضارع، استعير فيها وضع السيف فى جرابه، وتغطيته به، لستر الإنسان برحمة الله، وغمره فيها، وهى استعارة محسوس لمعقول، وقد شرحها صاحب اللسان، وكشف اللثام عن مضمونها

---

(١) النهاية فى غريب الحديث والأثر: ٣ / ١٢٧.

(٢) لسان العرب: ٥ / ٣٢٩٢ (غمد). وينظر النهاية فى غريب الحديث والأثر: ٣ / ٣٨٣.

دون أن يصرح باستعارة أو غيرها كعادته التى ألفناها فيما سبق بيانه وقد حظيت هذه الاستعارة بشهرة فائقة تكاد تكون منقطعة النظير على ألسنة الناس، وفى وسائل الإعلام المختلفة عند الترحم على من مات من المسلمين.

ومن هذا النوع ما ذكره من استعارة النوم للموت فقد قال: « .. ونامت الشاة وغيرها من الحيوان إذا ماتت، وفى حديث على أنه حث على قتال الخوارج فقال إذا رأيتموهم فأنيموهم أى اقتلوهم، وفى حديث غزوة الفتح فما أشرف لهم يومئذ أحد إلا أناموه أى قتلوه يقال نامت الشاة وغيرها إذا ماتت والنائمة الميتة »[١].

فقد استعير النوم فى هذه الأفعال (نامت، أناموه، أنيموهم) للموت، وذلك واضح من شرحه وبيانه، من غير أن يصرح باستعارة أو غيرها.

وقد ذكر عكس ذلك، وهو استعارة الموت للنوم ولكنه أشار إليها بكونها تمثيلا وتشبيها فقال: « ... وفى حديث دعاء الانتباه الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور سمى النوم موتا لأنه يزول معه العقل والحركة تمثيلا وتشبيها لا تحقيقا .. »[٢].

وقد عرض ابن حجر العسقلانى فى فتح البارى لشرح هذا الحديث، وبيان الاستعارة فيه فقال: « قوله (وإذا قام قال الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا ...) قال أبو إسحاق الزجاج النفس التى تفارق الإنسان عند النوم هى التى للتمييز، والتى تفارقه عند الموت هى التى للحياة وهى التى يزول معها التنفس، وسمى النوم موتا لأنه يزول معه العقل والحركة تمثيلا وتشبيها قال فى النهاية[٣] ويحتمل أن يكون المراد بالموت هنا السكون كما قالوا ماتت الريح أى سكنت ... »[٤] ثم نقل ابن حجر عن بعض العلماء قوله موضحا وجه إطلاق الموت على النوم فقال: « الحكمة فى إطلاق الموت على النوم أن انتفاع الإنسان بالحياة إنما هو لتحرى رضا الله عنه، وقصد طاعته، واجتناب سخطه وعقابه فمن نام زال عنه هذا الانتفاع فكان كالميت، فحمد الله على هذه النعمة، وزوال ذلك المانع ... »[٥].

---

(١) لسان العرب: ٦/ ٤٥٨٦ (نوم). وينظر النهاية فى غريب الحديث والأثر: ٥/ ١٣١.
(٢) لسان العرب: ٦/ ٤٢٩٥ (موت). وينظر النهاية فى غريب الحديث والأثر: ٤/ ٣٦٩.
(٣) المصدر نفسه والموضع. (٤) فتح البارى شرح صحيح البخارى: ١١/ ١١٧.
(٥) المرجع نفسه: ١١/ ١١٨.

ومن هذا الضرب ما أشار إليه من استعارة الفعل (نادى) (لظهر) فقد قال: «ونادى لك الطريق، وناداك ظهر، وهذا الطريق يناديك...»[1].

يبدو أن الاستعارة هنا تبعية فى (نادى) و(ناداك) لأنه وضحها بالفعل (ظهر) وعليه يكون معنى (يناديك) يظهر لك، وذلك لأن النداء، أو من ينادى ظاهر، جلى كالنهار لا يحتاج إلى دليل.

ومن ذلك النوع ما أشار إليه من الاستعارة فى الحرف فقد قال: «... ومنها لام العاقبة كقول الشاعر:

فللموت تغذو الوالدات سخالها　　كما لخراب الدور تبنى المساكن

أى عاقبته ذلك قال ابن برى ومثله قول الآخر:

أموالنا لذوى الميراث نجمعها　　ودورنا لخراب الدهر نبنيها

وهم لم يبنوها للخراب، ولكن مآلها إلى ذلك، ومثله ما قاله شتيم بن خويلد الفزارى يرثى أولاد خالدة الفزارية...

فإن يكن الموت أفناهم　　فللموت ما تلد الوالدة

ولم تلدهم أمهم للموت، وإنما مآلهم وعاقبتهم الموت... وفى التنزيل العزيز: ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ [القصص: ٨] ولم يلتقطوه لذلك، وإنما مآله العداوة»[2].

ولا يخفى أن الاستعارة فى هذه الشواهد كلها، فى استعارة لام التعليل للام العاقبة، وهى استعارة تبعية فى الحرف، ولكنه لم يصرح بكونها استعارة، اكتفاء بتلك اللمحة الدالة، لام العاقبة.

* * *

(١) لسان العرب: ٦/٤٣٨٨ (ندى).
(٢) لسان العرب: ٥/٤١٠٤ (لوم).